

فضيلة الشيخ الدكتور

عبد الله بن عبد الرحيم بن حسين البخاري

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إنَّ الْحَمْدُ للهِ، نَحْمَدُهُ-تَعَالَى-وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوْذُ بِاللهِ مِنْ شُرُوْرِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مِنَ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيْكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ نَبِيَّنَا مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُوْلُهُ-صَلَّى الله عَلَيْه وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وسَلَّم-.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٠٢﴾ ﴿آل عمران﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ١﴾ ﴿النساء﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ٧١﴾ ﴿الأحزاب﴾.

أما بعــــــــــــد:

فَإِنَّ أَصْدَقَ الْحَدِيْثِ كِتَابُ الْلَّهِ، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ-صَلَّىَ الْلَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، وَشَرِّ الْأُمُورَ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلَّ ضَلَالَةٌ فِيْ الْنَّارِ.

وبعــــــد:

أيها الأحبة: نحمد الله مرارًا وتكرارًا، نهارًا وليلًا أن هيئ لنا ولكم هذا اللقاء، في هذا البلد المبارك، في هذا المسجد المبارك-إن شاء الله تعالى-.

ونسأل الله-جل وعلا-أن يبارك لنا ولكم في أوقاتنا وأعمالنا، وأن يجزي القائمين من وزارة الشؤون الدينية ومديريتها بــِ (**أم البواقي**)، ووالي ولاية (**أم البواقي**)، والإخوة الكرام جميعًا خير الجزاء وأوفاه.

وأمَّا عن رغبة الإخوة هنا: أن يختطفوني كما يقال، فهذه يعني: محبة زائدة، ويعني: نمرها كما جاءت، ولا نقف عندها، نعم، وأنا أبادلهم حقيقة الشعور نفسه في اعتزازي بالإخوة والأبناء-طلبة العلم والمحبين والحريصين على السنة-.

نسأل الله أن يجمعنا جميعًا تحت لواء سيد المرسلين وإمام المتقين: محمد بن عبد الله-صلوات الله وسلامه ورحمته وبركاته عليه-.

أيها الأحبة: هذه المحاضرة أو الكليمة هي عبارة عن، عنوانها: (**حقيقة التقوى وأثر تطبيقها**)، هذه الكلمة العظيمة-أعني: التقوى-كثير منَّا لعله لا يعرف المعنى

الحقيقي لها، وبالتالي لا يعرف أثر تحقيقها وما يعود عليه من نفع-إن شاء الله-في الأولى والآخرة.

ما هي هذه التقوى التي أَمَرَنَا الله-جل وعلا-بها في آيات كثيرة؟.

في قوله-جل وعــلا-: ﴿ ...وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾ ﴾﴿ البقرة ﴾.

وقوله-جل وعلا-: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ...﴿١٠٢﴾ ﴾ ﴿ آل عمران ﴾.

فما دلالة كلمة ﴿ ... حَقَّ ... ﴾ في قوله: ﴿ ... حَقَّ تُقَاتِهِۦ... ﴾؟.

وما هي التقوى التي قال الله–جل وعلا-فيها: ﴿ ...وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ... ﴿١٩٧﴾ ﴾﴿ البقرة ﴾؟.

ما هي التقوى التي قال الله–جل وعلا-عنها: ﴿ ...وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌۚ ...﴿٢٦﴾ ﴾﴿ الأعراف ﴾؟.

ما هي التقوى التي حصر وقصر-سبحانه وتعالى-قبول العمل إلا من أهلها في قوله-جل في علاه-: ﴿ ...إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾﴿ المائدة ﴾؟.

ما هي التقوى التي قال الله–جل وعلا-في حق أهلها: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٥٥﴾ ﴾﴿ القمر ﴾؟.

وقال-جل وعلا-: ﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ﴿٣٢﴾... ﴾ ﴿النبأ﴾ الآيات.

ما هي التقوى التي قال الله-جل وعز سبحانه وتعالى-: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾ ﴾ ﴿مريم﴾؟.

ما هي هذه التقـــــــوى؟.

في آيات كثيرة، في القرآن الكريم آمرة، حاثَّة، محذِّرة من ترك التقوى، وعدت أهلها الخير الكثير والنفع العميم، فما هي حقيقة هذه التقوى؟.

ولعل كثيرًا منَّا يقول لأخيه أو لأحد من الناس: (**اتق الله!**)، وكثير من الناس يكثرون كلمة: (**اتق الله!**)، أليس كذلك؟.

فما معنى هذه الكلمــــــة؟، وما حقيقتها؟، وكيف تعامل السلف من الصحب الكرام والتابعين مع هذه الكلمة العظيمة؟.

أقول-بارك الله فيكم وفي الجميع-:

لَمَّا وقعت فتنة ابن الأشعث-عبد الرحمن بن الأشعث-أحد القواد للجيوش الذين كانوا يتبعون الحجاج بن يوسف الثقفي، هذا الرجل قد ولَّاه الحجاج على سجستان، وأرسله لقتال رتبيل ملك الترك-الكافر-لقتاله وفتح البلاد إلى غير ذلك.

المهم: أن عبد الرحمن بن الأشعث بينه وبين الحجاج شحناء، وبغضاء-بين الاثنين-، وكان الحجاج من شدة بغضه أراد أن يبعده عن أنظار خليفة المسلمين في ذلك الوقت-عبد الملك بن مروان-، فأبعده إلى سجستان وكلٌ منهما يتحين للآخر، فلم يره يومًا-ابن الأشعث-لم ير الحجاج يومًا إلَّا همَّ بقتله إلى هذه الدرجة من الشحناء.

فلَمَّا بدأ عبد الرحمن السير بقي في بلدة من البلدان أدركه فيها الشتاء القارص فبقوا فيها بعد أن فتحوها، وأرسل إلى الحجاج أنَّا أردنا البقاء إلى حين انقضاء الشتاء يتقوى الجنود على مواصلة السير والجهاد، فأرسل إليه الحجاج يوبخه ويصفه بالجبن والخور والضعف، وأنه كذا وكذا وكذا في يعني: عبارات غير لائقة ولا ممدوحة، فوافق ذلك الشحناء وتابع الحجاج هذه الرسائل وهذه الكتابات إلى ابن الأشعث باللوم ووجد سبيلًا للنيل منه والكلام فيه.

فقال في الجند خطيبًا: (...إن الحجاج يقول كذا وكذا فانظروا أمركم...)، فلم يرتضِ القوم كلام الحجاج وخلعوا الحجاج، فإنه كان أميرًا عليهم، خلعوا الحجاج وبدل أن يتجه ابن الأشعث إلى رتبيل لقتاله وفتح البلاد فانقلب ورجع إلى الحجاج لقتال الحجاج.

فخرجوا جميعًا لقتال الحجاج، وهم الطريق قالوا، وكان يومًا يخطب فيهم والد ابن الأشعث محمد بن الأشعث، واسم الابن عبد الرحمن، خطب فيهم ومما قال: (...بما أنَّا خلعنا الحجاج فلا بد أن نخلع من ولَّى الحجاج...)، فخلعوا عبد الملك بن

مروان وخلعوا الحجاج، فتوجهوا إلى ماذا؟، إلى قتاله، ودارت بينهم معارك كثيرة شهيرة كانت الغلبة في أكثرها لابن الأشعث، إلا أنه في آخر تلك النزالات ظفر به الحجاج، نعم وانتصر عليه.

وهذه الفتنة-بارك الله فيكم-: قد شارك فيها مع ابن الأشعث جمع من الصلحاء والصالحين وأهل العلم، لأن الحجاج بن يوسف معروف أيها الأحبة بتسلطه، وجبروته، وسفكه للدماء.

بل كان يتحين في وقت الجمعة أن يؤخر الصلاة عن وقتها، وفعل بالناس الأفاعيل، حتى إنه قد قال له رجل: يا هذا إنك قد فعلت بأمة محمد كَيْت وكيت، فانظروا إلى جواب هذا الرجل وهو جواب عظيم داهية، قال: (...نعم، إنما أنا نقمة من نقم الله عليكم، لَمَّا أحدثتم في دين الله ما أحدثتم وتركتم من شريعة محمد ما تركتم سلَّطني الله عليكم...)، هكذا يكون الأمر (...سلَّطني الله عليكم...).

وسمع الإمام ابن سيرين رجلًا يدعو على الحجاج فقال له: (...يا هذا!...)، كما في مصنف ابن أبي شيبة، قال له: (...يا هذا! إن الله حكم عدل يأخذ للحجاج ممن ظلمه كما يأخذ ممن ظلم من الحجاج، فلا تظلم...)، فعل الأفاعيل الحجاج بن يوسف الثقفي بأمة محمد-صلى الله عليه وآله وسلم-، وقتل سادات الناس ومنهم: (سعيد بن جبير-رحمه الله ورضي عنه-)، وغيره من الأئمة والصلحاء، ولَمَّا استفحل أمره خرج بعض الصالحين معه، وبعض العلماء مع ابن الأشعث أعني، في قتال من؟، الحجاج.

ولهذا: كان أن قيل لابن الأشعث: (...إذا أردت أن يقاتل الناس معك كما قاتل الصحابة حول هودج عائشة...) يعني: يوم الجمل، (...فأخرج معك الحسن البصري...).

معلوم أيها الإخوة: منزلة الإمام حسن البصري في الناس، وهو قدوة، وأسوة، (...إذا أردت أن يخرج الناس ويقاتلوا معك الحجاج فأخرج معك الحسن...) لثقة الناس بالإمام الحسن، فجيء للإمام الحسن واقتيد عنوة وقسرًا، وهو يأبى-رحمه الله-، حتى إنه لَمَّا كان مقتادًا قَذَفَ بنفسه إلى النهر ليفلت من الدخول في هذه الفتنة، ونزلوا فأخرجوه-رحمه الله-كما في طبقات ابن سعد.

الشاهد: هذه الفتنة العمياء التي ذهبت فيها أنفس، وقتلت فيها أمم، وفقد آخر تلك الليالي ليلة تسمَّى (**ليلة دجيل**)، فقد فيها كثير من الخلق، ولذلك تجد في تراجم بعض الأئمة يقال: (**فُقِدْ ليلة دجيل**)، فُقِدْ، لا يدرى عنه مات هو في تلك السنة أم مات بعدها؟، لا يُدرى.

ومن هؤلاء: أبو عبيدة بن عبد الله بن مسعود-رضي الله تعالى عن أبيه ورحمه-، وغيرهم من العلماء.

هذه الفتنة، ومعلوم ما في القتال أيها الأحبة من الافتتان، ومن تداخل الحق بالباطل، ولهذا الله-جل وعلا-يقول: ﴿ **وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾** ﴾﴿ البقرة ﴾.

مِمَّنْ خرج مع ابن الأشعث في ذلك الوقت: الإمام عامر بن شراحيل الشعبي، الإمام الشعبي الشهير، ولكنه تاب وأناب ورجع إلى الله-جل وعلا-واستغفر.

فهؤلاء القوم من الصلحاء والعلماء خرجوا، تاهت الناس والعامَّة، نخرج مع ابن الأشعث؟!، أم نصبر على جور الحجاج؟!، هل نتعامل معه بما دَلَّتْ عليه النصوص من الصبر على جور الأئمة أم لا؟!، ماذا نفعل؟!.

في هذا المقام أُذَكِّرُ والذكرى تنفع المؤمنين: أن عبد الله بن عمر-رضي الله تعالى عنهما-كما في مصنف ابن أبي شيبة، لَمَّا قيل له: (...إنَّه قد بويع ليزيد...)، ماذا قال؟، قال: (...إنْ كان خيرًا شَكَرْنَا، وإنْ كان شرًا صبرنا...)، هذا هو التعامل الشرعي مع الولاة الذين فيهم جور وظلم وحيف.

المهم: جاءت الناس إلى رجل يسمَّى (**طلق بن حبيب**)، وهذا الأثر الذي سأذكره قد أخرجه الإمام عبد الله بن المبارك في كتاب الزهد، وهنَّاد بن السَّرِي في الزهد أيضًا، وابن أبي شيبة-رحمه الله ورحمهم جميعًا-في المصنف، وفي كتاب الإيمان له، وكذا أبو نعيم في الحلية بسند صحيح.

(...أنه لَمَّا وقعت فتنة ابن الأشعث...) هكذا اللفظ فيها، (...لَمَّا وقعت فتنة ابن الأشعث جاءه الناس وقالوا لطلق: ماذا نفعل؟، فكان يقول لهم: أطفئوها بالتقوى...)، أو (...ادفعوها بالتقوى...)، في لفظ-في رواية-: (...أطفئوها...)، وفي رواية: (...ادفعوها...).

وهكذا الفتن تحتاج إلى دفع وإطفاء، لأنها إذا لم تُطفئ زادت واشتعلت ومشت في الناس، فلا يدري القاتل لِمَ قَتَلْ!، ولا المقتول لِمَ قُتِلْ!.

قال: (...ادفعوها...) أو (...أطفئوها بالتقوى...)، كأنه أكثر عليهم بهذا الجواب، فقالوا له بعد أن كرر عليهم، قالوا له: (...صِفْ لنا التقوى...)، إذًا قد أكثرت علينا فما هي التقوى؟، قال-رحمه الله-: (...التقوى...)، وهذا هو حقيقتها، (...التقوى: عمل بطاعة الله، على نور من الله، ترجو ثواب الله، والتقوى: ترك معصية الله، على نور من الله، مخافة عقاب الله...).

هذه هي التقوى: عمل بطاعة الله، على نور من الله ترجو ثواب الله، **والتقوى**: ترك معصية الله، على نور من الله، مخافة عقاب الله، هكذا نصحهم-رحمه الله-.

هذا الْحَدُّ-أعني في تعريف التقوى، وبيان حقيقة التقوى، أو حَدِّ التقوى-، قال فيه الإمام ابن القيم-رحمه الله-في كتابه: (**الرسالة التبوكية**)، قال: (...هذا الْحَدُّ أحسن ما قيل في حَدِّ التقوى...)، ولا ينبئك مثل خبير.

أقول: ولا ينبئك مثل خبير كالإمام ابن القيم-رحمه الله-العارف الْخِرِّيْت-رحمة الله عليه-، وصفها بهذا الوصف الجامع (...أحسن ما قيل...)، العبارات في حَدِّ التقوى عديدة، إلَّا أنَّ هذا أحسن تلك العبارات.

وقد ذكر هذه الْحَدَّ أيضًا: الإمام المفسر ابن كثير في تفسيره عند آية: ﴿...**وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ** ﴿٤١﴾﴾ ﴿البقرة﴾، مقررًا له.

وذكرها أيضًا: الحافظ الذهبي-رحمة الله عليه-في سير أعلام النبلاء في ترجمة طلق، فقال-رحمه الله-: (...أبدع وأوجز...) يعني في العبارة، أبدع فيها وأوجزها، قال: (...فلا تقوى إلَّا بعمل، ولا عمل إلَّا بِتَرَوٍ من العلم والإتباع، ولا ينفع ذلك إلا بإخلاص لله، لا ليقال فلان تارك للمعاصي بنور الفقه إذ المعاصي يفتقر اجتنابها إلى معرفتها، ويكون الترك خوفًا من الله لا ليمدح بتركها، فمن داوم على هذه الوصية فقد فاز...).

هذه بعض مقالات الأئمة حول مقالة طلق، واعترافهم-رحمهم الله-وتقريرهم بأن هذا الكلام من أبدع وأوجز الكلام وأنفعه وأحسنه في بيان حَدِّ التقوى.

نأتي إلى معناها لتعرف دلالة كلمة ﴿... **حَقَّ** ...﴾ في قوله: ﴿... **ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ**...﴿١٠٢﴾﴾﴿آل عمران﴾.

يقول-رحمه الله-: (...التقوى عمل بطاعة الله...).

إذن: التقوى تشتمل على الإتيان بالأعمال ليست أقوال مجردة، (...عمل بطاعة الله...)، ليس العمل أي عمل!، إنَّمَا عمل يقربك من الله.

قوله: (...بطاعة الله...)، تدخل فيه جميع الأعمال التي تقربك من الله فرضًا كانت أم نفلًا، فالفرائض والنوافل من صدقات، وصلاة، وزكاة، ومساعدة المحتاجين وغير ذلك، وتعليم القرآن وتدريسه، ونشر العلم والخير، كل هذا يدخل تحت ماذا؟، (...عمل بطاعة الله...)، فلفظ (...طاعة الله...) شامل لجميع الفرائض والنوافل التي تقربك من الله-جل في علاه-.

إذن: التقوى عمل، وهذا العمل يقول: (...عمل بطاعة الله على نور من الله...)، ما المراد بالنور هنا؟، المراد بالنور هنا: العلم، أي أنَّ هذا العمل الذي تقوم به مبني على علم.

الله-جل في علاه-يقول: ﴿يَـٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَـٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَـٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَـٰبٞ مُّبِينٞ ١٥ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَـٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ١٦﴾ ﴿المائدة﴾، فالنور هنا بالعلم، يعني: العمل قائم على علم.

ولهذا نَصَّ أهل العلم: على أنَّ العلم شرط في صحة العمل.

قال الإمام البخاري في الصحيح: (...باب العلم قبل القول والعمل...)، ثم ذكر قول الله-تعالى-: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ ...١٩﴾ ﴿محمد﴾، قال: (...فبدأ بالعلم قبل القول والعمل...).

إذن: العمل مبعثه أو مبنيٌ على علمٍ، والعلم انتبه هنا!، ليس أي علم إنَّما هو العلم الصحيح المبني على الوحيين، الذي خرج من فِيِّ رسول الله-صلى الله عليه وآله

وسلم-، والذي لا ينطق عن الهوى ﴿ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ ٤ ﴾﴿ النجم ﴾-عليه الصلاة والسلام-.

هذا هو العلم، هذا هو العلم الْمُنْجِي، والذي ينير لك الطريق، لا نور إلَّا هذا النور، ولا طريق إلَّا هذا الطريق، ثق بهذا.

يقول الله-جل في علاه-: ﴿ ...وَإِن تُطِيعُوهُ تَهۡتَدُواْۚ... ٥٤ ﴾﴿ النور ﴾، ويقول: ﴿ ...وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٥٢ ﴾﴿ الشورى ﴾، فلا نور إلا هذا النور، ولا طريق إلا هذا الطريق.

فالعلم أيها الأحبة: أي علمٍ هذا؟، هو العلم الصحيح المبني على الوحيين، وهذا العلم يقبض بقبض أهله، كما قال النبي-صلى الله عليه وآله وسلم-في حديث عبد الله بن عمرو بن العاص المخرج في الصحيحين: (إِنَّ اللهَ لَا يَقْبِضُ الْعِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنَ النَّاسِ، وَلَكِنْ يَقْبِضُ الْعِلْمَ بِقَبْضِ الْعُلَمَاءِ، حَتَّى إِذَا لَمْ يَتْرُكْ عَالِمًا، اتَّخَذَ النَّاسُ رُءُوسًا جُهَّالًا، فَسُئِلُوا فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ...) يفتي انتبه!، (...بِغَيْرِ عِلْمٍ فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا) والعياذ بالله، فالعلم الْمُنْجِي: هو العلم المبني على الوحيين.

يقول الإمام ابن القيم-رحمة الله عليه-في كتابه الفوائد، قال: (...أعلى الهمم في طلب العلم طلب علم الكتاب والسنة، والفهم عن الله وعن رسوله-صلى الله عليه وسلم-نفس المراد، وعلم حدود الْمُنَزَّل...).

(...أعلى الهمم في طلب العلم طلب علم الكتاب والسنة...) لأنك مأمور بذلك ﴿ ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ ...(٣) ﴾ ﴿الأعراف﴾.

وكل العباد سيسألون عن أمرين اثنين، الكل سيسأل: ماذا كنتم تعبدون؟، وماذا أجبتم المرسلين؟.

فالأول منهما جوابه: ماذا كنتم تعبدون؟، هو بتحقيق التوحيد والعبودية لله-جل في علاه-، جوابه: تحقيق العبودية لله.

والثاني جوابه: تحقيق تجريد الإتباع لرسول الله-صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم-.

وهذا الذي ذكرته قد نص عليه الإمام ابن القيم-رحمه الله-في مواضع من كتبه كما في مقدمة زاد المعاد واجتماع الجيوش الإسلامية وغيرها، وهو حق.

(...أعلى الهمم في طلب العلم طلب علم الكتاب والسنة، والفهم عن الله وعن رسوله-صلى الله عليه وسلم-نفس المراد...)، ليس المراد فهمك ولا فهمي ولا فهم زيد ولا عمر من الناس، أن تفهم عن الله وعن رسول الله مراد الله ومراد رسول الله-صلى الله عليه وسلم-، لتعبد الله على بصيرة.

ويدلك على هذا الفهم: موافقة الصحب الكرام، وسلف الأمة الصالح، فلا تخرج عن أفهامهم ولا عن أقوالهم، والفهم عن الله ورسوله نفس المراد.

ثم قال: (...وعلم حدود الْمُنَزَّل...)، هناك الأمور لها حدود، لِمَ؟، لأن الله-جل وعلا-يقول: ﴿ ...**تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا**...﴿٢٢٩﴾ ﴾﴿ البقرة ﴾، و﴿ ...**تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا** ...﴿١٨٧﴾ ﴾﴿ البقرة ﴾، ويقول-جل وعلا-: ﴿ ...**وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ**...﴿١﴾ ﴾﴿ الطلاق ﴾.

(...وعلم حدود الْمُنَزَّل...)، أين تقف!، يجوز لك أن تخوض أو لا يجوز لك أن تخوض!.

وما ترون أيها الأحبة وما تسمعون: من كثرة الذين يفتون ويتكلمون ويغرون الناس في بعض الفضائيات أو في بعض، نعم، الكتابات في الانترنت أو غيرها، كل هذا لا يعرف الواحد كثير منهم لا يعرف حدود الْمُنَزَّل!، فيهذي كثير منهم يهذي بما لا يدري ويوقع الناس في الفتن والمحن والشحناء والبغضاء والاقتتال إلى غير ذلك، أليس ذلك كذلك يا إخوتاه؟، انظروا أنتم ترون لا يحتاج الواقع خير شاهد.

إذًا التقوى: عمل بطاعة الله على نور من الله ترجو ثواب الله.

الباعث لك على هذا العمل: لا يمدح، والله إنَّ فلانًا من المتقين بدليل: أنه يطعم الطعام، ويقرئ الضيف، وكذا وكَذا رجل صالح صوَّام قوَّام، هذا أنت لا تفعله للناس!، أنت تفعل ليمدحك الناس؟، قد قيل ثم ذهب الأجر-والعياذ بالله-وبقي الوزر.

فالباعث لك على الحقيقة: أنك لا ترجو بهذا العمل وبهذه القربى إلَّا وجه الله-جل في علاه-، وإنما تريد بذلك أن تتقرب إليه بما يحبه-سبحانه وتعالى-من العمل الصالح، لا لتمدح لكن!، لو جاء ذلك تبعًا فيما بعد أن ذكر الرجل بالحسنى وأنه

محسن فما قام عنده الأمر وما قعد، مدحه الناس أمْ ذَمُّوه!، يستوي عنده الأمر ولا يكترث لا بالقلة ولا بالكثرة.

فلم تكن يومًا الكثرة والمدح ميزان حق، ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ...﴿١١٦﴾﴾﴿الأنعام﴾.

﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴿١٠٣﴾﴾﴿يوسف﴾، ولكن إن جاء ذلك تبعًا فتلك عاجل بشرى المؤمن.

إذًا الباعث الحقيقي على العمل: هو الإخلاص، وانظر إلى كلامه-رحمه الله-، التقوى في شقها الأول: عمل مبني على علم بإخلاص لله، صحيح؟، والعمل إذا تقوم به هل تقوم بهواك ولّا بإتباع سيد الخلق-عليه الصلاة والسلام-؟، تتبع سيد الخلق.

إذن: جمع لك في هذا التعريف الأول ركني العبادة: الإخلاص والإتباع.

ثم قال-رحمه الله-: (...والتقوى ترك معصية الله...)، (...ترك...) ترك المعصية، الابتعاد عن المعاصي، (...ترك معصية الله...)، ليس المراد بالمعصية هنا هو الفسق فقط أو الفسوق، كل ما يدخل تحت المعاصي داخل في هذا اللفظ.

وأعظم المعاصي الشرك بالله-جل وعز-والكفر به معصية عظيمة، ثم يليه الابتداع ومخالفة هدي رسول الله-صلى الله عليه وسلم-، ثمَّ جميع أنواع الفسوق الأخرى.

فقوله: (...ترك معصية الله...)، جميع المعاصي هذه، كفرًا، أو شركًا، أو بدعةً، أو فسقًا تتركها، تحاول وتجاهد نفسك على تركها ودفعها.

وهناك كلمة عظيمة للإمام ميمون بن مهران-رحمه الله-، أخرجه أبو نعيم في الحلية، وذكره الحافظ ابن رجب-رحمه الله-في جامع العلوم والحكم، قال-رحمه الله-: (...أعمال الْبِرْ يعملها الْبَرُّ والفاجر، وأمَّا ترك المعصية فلا يقوى عليها إلا صدِّيق...).

(...أعمال الْبِرْ يعملها الْبَرُّ والفاجر...)، ولعله أضرب بذلك مثلًا: نحن على أعتاب وأبواب رمضان نسأل الله أن يبلغنا وإياكم هذا الشهر الكريم، وأن يتغمدنا وإياكم بواسع فضله وكريم منته-سبحانه جل وعز-.

في هذا الوقت المبارك، وهذا الشهر المبارك يتسارع أهل الخير أليس كذلك؟، في الإطعام، في الإنفاق، في بذل وجوه الإحسان للناس وهذا خير، هذا خير يعان الناس عليه ويحثُّون عليه.

لكن انظر هذا تقريب: (...أعمال الْبِرْ يعملها الْبَرُّ والفاجر...)، لا يعني ذلك أنَّ كل الذين يتصدقون ويحسنون فجَّار-أعوذ بالله من هذا المعنى، وما دار في خلدي-، إنما المراد أنَّ في هذا الشهر يستوي الصالحون وغيرهم ممن أراد التقرب إلى الله بالعمل الصالح.

قال: (...وأمَّا ترك المعصية فلا يقوى عليها إلا صدِّيق...)، يحتاج إلى أنْ يجاهد نفسه وخاصَّةً إذا ما خلا، فعند تلك الخلوات تظهر النفس على حقيقتها وتنكشف، قد يعمل الإنسان بعض الأعمال في الخفاء لكنه إذا ظهر أمام الناس استحى، أو

احتاط، أو تَحَفَّظ ونحو ذلك، ولكنه إذا خلا بمحارم الله قد يكون بعض الناس إذا خلا بمحارم الله انتهكها.

إذا ما خلوْتَ الدّهرَ يوْماً فلا تَقُلْ   خَلَوْتَ ولكِنْ قُلْ عَلَيَّ رَقِيـــبُ

وكما قال بعض السلف: (...فعل الطاعة ذكر لله وأحسن منه أن تذكره فلا تقدم على المعصية...).

أمَّا ترك المعصية يقول: (...فلا يقوى عليها إلا صدِّيق...)، صدق الله فصدقه الله، جاهد نفسه فأفلح في جهادها وانتصر عليها وغلبها، بل ما إذا خلا اجتهد في التقرب إليه بأنواع الطاعات التي لا يعملها في ماذا؟، في الظاهر، التي لا يعملها في الظاهر.

قيل للإمام عبد الله بن المبارك: (...ما لنا نرى رجالًا...) يعني: وجوههم فيها نور، قال: (...أولئك خَلَوْا بنور الله فألبسهم الله من نوره...)، وَهُمْ أنهم ﴿ **كَانُواْ قَلِيلٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ ١٧ وَبِٱلۡأَسۡحَارِ هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ ١٨** ﴾﴿ الذاريات ﴾.

فهمت يا عبد الله؟.

قال: (...وأمَّا ترك المعصية فلا يقوى عليها إلا صدِّيق...)، تحتاج إلى جهاد، والنفس المارة بالسوء راغبة، تواقة، وتحتاج إلى إلجام، النفس تحتاج إلى ماذا؟، إلى ترويض، فإذا روضتها انقادت إليك، أمَّا إن تركتها ساحت وهامت.

والترويض معلوم أيها الأحبة: معلوم عند أهل الخيل، وهي التي يقال عنها الخيل الْمُضَمَّرة، الخيل ليست على رتبة واحدة، بعض الخيول التي تركب للسباقات وغير ذلك تجد أنَّ قوامها وجسدها متناسق إلى غير ذلك، بخلاف التي تجر العربات وتعمل في الحقول شكلها وبنيتها تختلف، فإذا ما أرادوا تعويد فَرَسٍ أو خيلٍ إلى مضمار السباق يروضونها.

والترويض هو: إدخالها في محل نعم، يمنعون عنها الطعام والشراب، ويروضونها يعطونها الماء والطعام والشراب بحذرٍ وقدر، ويدربونها على الركض كما يقال الرياضة، والسرعة، فتجد بعد ذلك-بعد حين-تنقاد لمروضها، لو قال لها: قومي قامت، اقعدي قعدت، اركضي ركضت، قِفِي وقفت.

هكذا النفس تحتاج إلى هذا الترويض، روِّضها، ألجمها بلجام الشريعة، الحرام أمسك عنه ولو كانت نفسك تتوق إليه-والعياذ بالله-، ستجد اللذة، والطاعة نعم عجِّلها إليها وحثها إلى المبادرة إلى القيام بها لأن الله-جل وعلا-يقول: ﴿وَسَارِعُوٓاْ ... ١٣٣﴾ ﴿آل عمران﴾، و ﴿سَابِقُوٓاْ ... ٢١﴾ ﴿الحديد﴾ وضح؟.

إذن أيها الأحبة: الترك: (...ترك معصية الله على نور من الله...)، النور هنا هو النور هناك، الترك مبني على علم، مثاله: بعض الناس قد يفعل بعض الأمور المحرَّمة صحيح؟، وهو لا يعرف أنها محرَّمة أليس كذلك؟، معروف هذا.

أُقَرِّبُ أكثر: بعض المعاملات المالية قد يفعلها بعض الناس يرى-يظن-أنها جائزة، وهي في حقيقتها محرَّمة، أو مشبوهة وغير ذلك صحيح؟، فيحتاج تركه لها إلى ماذا؟، إلى أن يعلم، إذًا تركه لهذا المنهي يحتاج إلى ماذا؟، إلى علم.

ولهذا قال الذهبي-رحمه الله-: (...إذ المعاصي يفتقر اجتنابها إلى معرفتها...)، ما تدري أنت أنها معصية سواءً كانت قولًا أو فعلًا!، بعض الناس يرتكب أو يقول قولًا محرمًا ولا يدري أنه محرَّم!، فهذا أمر مشاهد معلوم.

إذن: النور هنا هو النور هناك، الْتَّرْكُ مبني على علم.

قال: (...مخافة عقاب الله...)، ما تركت هذا المنكر أو هذه المعصية إلَّا وأنت خائف الله-جل في علاه-، لأنه-سبحانه- ﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي ٱلصُّدُورُ ١٩ ﴾﴿ غافر ﴾-جل وعز-، و ﴿ ...خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ... ﴾ ما هي؟، هو تحريك العين هكذا، هذا يعلمها-جل وعلا-.

بل ويعلم ما تخفي صدور الخلق جميعًا، فهو-جل وعز- ﴿ ...يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ٧ ﴾﴿ طه ﴾، و﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي ٱلصُّدُورُ ١٩ ﴾ ﴿ غافر ﴾.

بل دلالة قوله-تعالى-: ﴿ ... يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ٧ ﴾ فيها دلالة عظيمة.

قال الإمام ابن القيم-رحمه الله-، ما معنى السِّر؟، أنا أقول: ما معنى السِّر هنا في قوله-تعالى-: ﴿... يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ۝٧﴾؟، قد يقول قائل: المراد بالسرّ ما كان بين اثنين هذا السِّرُ، لأنه إذا كان الأمر بين اثنين ثمَّ ذاع ما كان سرًا خلاص انتشر.

فما معنى قوله-تعالى-: ﴿... يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ۝٧﴾؟، انظر إلى المعنى الدقيق في هذه الآية العظيمة.

يقول الإمام ابن القيم-رحمه الله-: (...المراد بالسِّرِ هنا: هو ما حدَّثَ به المرء نفسه ولم تنطق به شفتاه...)، السِّرُ في قوله: ﴿... يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ... ۝٧﴾ هو: ما حدَّثَ المرء به نفسه، أنت تحدِّثُ نفسك.

قال: (...ولم تنطق به شفتاه...)، ما تَكَلَّمَ به!، وأخفى من السَّرِ ﴿... يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ۝٧﴾ أي: وأخفى من السِّرِ قال: (...أي أنه-سبحانه وتعالى-يعلم أنَّ عبده سيحدَّث نفسه بكذا وكذا، وهو بعد لم يحدِّثها!، فهذا دلالة قوله: ﴿... يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ۝٧﴾.

﴿... يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ۝٧﴾ أي: وأخفى من السَّرِ-جل في علاه-.

ألا يستحق هذا الإله-جل في علاه-أنْ يُوَحَّدْ، وأن يُجَرَّد-سبحانه وتعالى-في العبودية؟، تجريد العبودية له؟!، وأن تخضع له الرقاب؟، ويَذِلَّ له العبيد؟، فيطَّرحوا بين يديه منيبين إليه مستغفرين تائبين مقبلين عليه-جل وعلا، سبحانه وتعالى-؟.

هذه حقيقة التقوى أيها الأحبة.

إذن: التقوى عمل بالطاعات، وترك للمنهيات، وهذا العلم-العمل والترك- مبني على علم، بإتباع لرسول الله وإخلاص لله، هذه معنى التقوى أو هذا هو معنى التقوى.

عرفتم معناها الآن؟.

إذن: عرفتم دلالة قوله-تعالى-: ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ**...﴿١٠٢﴾﴾﴿آل عمران﴾، هذه دلالة كلمة ﴿... **حَقَّ** ...﴾.

التقوى أيها الأحبة ثلاث مراتب:

المرتبة الأولى: كما قال الإمام ابن القيم: (...حمية القلب والجوارح عن الآثام والمحرمات بجميع صِوَرِهَا...)، هذه ماذا؟، الرتبة الأولى.

المرتبة الثانية: يقول-رحمه الله-: (...حميتها عن المكروهات...)، لا تقل هذا أمر مكروه يعني: ما في بأس!، لأ، تريد أن تكون من المتقين الذين اتقوا الله حق تقاته؟، الذين وعدهم الله-جل وعلا-: ﴿ **إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَنَهَرٖ**﴿٥٤﴾﴾﴿القمر﴾، الذين...الذين؟، داوم وارتقي في هذه المراتب.

قال: (...حميتها عن المكروهات...).

ثم قال: (...الثالثة: الحمية عن الفضول وما لا يعني...)، حميتها عن الفضول وما لا يعني، لا تقحم نفسك فيما لا يعنيك، اترك! ما لا يعنيك لا تقحم نفسك، عافاك الله فاحمد الله على المعافاة، فاحمد الله.

ما نتيجة من قام بهذه الحميات الثلاث والرتب الثلاث؟.

يقول-رحمه الله-: (...فالأولى...) الرتبة الأولى، قال: (...الأولى تعطي العبد حياته...)، إن حميت قلبك وجوارحك عن المحرمات والآثام.

ثم قال: (...والثانية: تفيد صحته وقوته...)، إذا ما ترك ماذا؟، حماها عن المكروهات.

قال: (...والثالثة: تكسبه سروره وفرحه وبهجته...)، عرفتم أيها الأحبة؟، إذا عرفت أيها العبد المؤمن الصالح هذه المعاني الدقيقة ووقفت على هذا المعنى المراد.

أقول: إذا عرفت حقيقة التقوى لم يفتك المراد.

يقول الإمام ابن القيم-رحمه الله-: (...إذا وقفت على مراد التقوى لم يفتك المراد...)، (...إذا وقفت على مراد التقوى...) يعني: المراد من التقوى، (...لم يفتك المراد...)، إذ أنت قد أتيت به.

أيها الأحبة: الواحد منَّا يتعرض لأمور في حياته ومعاشه أليس كذلك؟، ويطلب من الله أن يعينه وأن يسدده وأن يوفقه، ويحتاج من الله-جل وعز-مع ذلك كله أن يكون في عونه.

وهنا كلمة نفيسة غالية: قالها الإمام ابن رجب-رحمه الله-في جامع العلوم والحكم، قال-رحمه الله-: (...من عامل الله بالتقوى في حال رخاءه عامله الله باللطف حال في حال شدته...),

(...من عامل الله بالتقوى في حال رخاءه...)، في حال السعة والراحة والأمن والأمان-ولله الحمد-والصحة، (...من عامل الله بالتقوى في حال رخاءه عامله الله باللطف...)، بأن يلطف به-جل وعلا-في حال الشِّدَة إذا ما نزلت بك.

فالعبد أيها الأحبة: متقلب بين أحكام الأوامر وأحكام النوازل، العبد متقلب!، انظر إلى بعض البلاد حولك وتأمل!، كانوا في رخاء وفي نعمة ونسأل الله أن يزيل وأن يكشف عنهم وعن أمة محمد الغمَّة.

العبد يتقلب بين أحكام الأوامر ﴿وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔاۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ...﴿٣٦﴾﴾﴿النساء﴾، ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ...﴿٤٣﴾﴾﴿البقرة﴾، إلى غير ذلك آيات وأحاديث كثيرة تأمرك وتنهاك، أحكام الأوامر.

العبد يقول الإمام ابن القيم: (...متقلب بين أحكام الأوامر وأحكام النوازل...)، تنزل بك نازلة من مرض أو فاقة أو...أو...أو...أو.

يقول-رحمه الله-: (...فهو محتاج بل مضطر إلى الله-سبحانه وتعالى-إلى أن يعينه للقيام بأحكام الأوامر...)، صحيح؟، أنت لا تقول: أنا أستطيع بنفسي!، أنا أفعل هذه الأشياء كلها والأوامر!، لأ، إذا ما أعانك الله لا تستطيع، أبدًا لا يمكن.

فالتوفيق: أن تعلم الطاعة وأن يعينك الله عليها، هذا هو التوفيق، يعينك عليها، بعض الناس يعرفون الطاعات يسمعون بها صحيح؟، لكن ما يفعلون.

نقول له: هذا من قلة التوفيق أن علم ولم يعمل، فالعبد يحتاج إلى توفيق.

قال: (...فالعبد محتاج بل مضطر إلى أن يعينه الله...) إلى العون من الله (...في القيام بأحكام الأوامر، ومفتقر إليه، ومحتاج إليه، في أن يلطف به في أحكام النوازل...)، إذا نزلت بك نازلة تطلب من الله اللطف والسلامة أليس كذلك؟، ﴿ **أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ** ﴿١٤﴾ ﴾﴿ الملك ﴾-سبحانه-؟.

يقول-رحمه الله-: (...فعلى قدر قيام العبد بأحكام الأوامر يكون اللطف به في أحكام النوازل...)، فانتبه يا عبد الله!، انتبه! ﴿ **يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَـٰمِهِمْ**... ﴿٧١﴾ ﴾﴿ الإسراء ﴾، تريد أن تحشر تحت لواءه-صلى الله عليه وسلم-جعلنا الله وإياكم منهم فسارع إلى تطبيق أحكام الأوامر، واستعن بالله-جل وعز-بذلك، ولا تؤجل، ولا تسوِّف، وأقدم على الطاعات من غير ماذا؟، تخاذل، واتق الله-جل وعز-في سرِّك وعلانيتك، فالله-جل وعز-يحب من العبد أن يكون ملحاحًا عليه-سبحانه-بالدعاء.

يقول الإمام الحسن البصري-رحمه الله-كما في المصنف لابن أبي شيبة: (...علم المؤمن في عمله، وعلم المنافق في لسانه...)، يريد-رحمه الله-: أن المؤمن يعلم فيعمل، أمَّا بعض المنافق يعلم ولا يعمل، ولهذا ذمَّ الله من علم فلم يعمل.

زودني الله وإياكم بالتقوى، وجعلني وإياكم من المتقين، الصالحين، وأن يبارك لنا ولكم في أعمالنا وأعمارنا وأوقاتنا، ونسأله-جل وعلا-أن يجعلني وإياكم مباركين أينما كنَّا، إنه جواد كريم.

وصلى الله وسلم وبارك على رسول الله وعلى آله وصحبه وسلم.

قام بتفريغه: أبو عبيدة منجد بن فضل الحداد

الجمعة الموافق: 7/ شعبان/ 1432 للهجرة النبوية الشريفة.